منهجية الإمام القرضاوي
في مقاربة المسألة السياسية

أ/ أسماء بن قادة

مقدمـة:

عرفته وأنا شبه طفلة، عندما كان يصطحبني والدي رحمه الله لحضور ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تنعقد سنويا في الجزائر، والتي كان يشارك فيها نخبة من العلماء والأكاديميين من كل أنحاء العالم، وما زلت أذكر تلك اللحظة التاريخية التي علق فيها الإمام على تعقيب لي في ذلك المؤتمر مثنيا ومعبرا عن إعجابه بالكلمة، على الرغم من أن القاعة كلها كانت قد اهتزت للمداخلة معبرة بالتصفيق والتكبير وعلى الرغم من تغطية الجرائد لتلك الكلمة تحت عنوان: قد تجد في النهر ما لا تجده في البحر، لكن شيئا واحدا فقط حلق بي بعيدا في أجواء السماء، إنها كلمة الإمام، شعرت وكأني قد ملكت الدنيا بتلك الشهادة، إنها اللحظة التي بدأت فيها رحلة التلمذة، فلقد جاءني الإمام بعد نزولي من المنصة ليشكرني ويتعرف علي عن قرب ويسألني عن دراستي ومجال نشاطي الإسلامي ومن بين ما قاله لي إن له ابنة اسمها أسماء مثلي، وتكررت زيارات الشيخ للجزائر، ولا أنفي أنه قد أحاطني باهتمام خاص، إلى الدرجة التي جعلت بعض صديقاتي من الإخوانيات يزرنه يوما في الفندق، حيث كان يقيم ليقلن له على الطريقة النسائية: فضيلة الشيخ إن أسماء ليست إخوانية ولعلك تودعها سرا من أسرار الجماعة وأنت تعتقد أنها كذلك فضحك، وقال لهن: أنا أعلم ذلك وأفضلها هكذا مستقلة، وتكررت زيارات الشيخ إلى الجزائر، فلم يكن يضيع مني خلالها محاضرة أو لقاء أو نشاط، حتى أصبحت إذا بدأ الجملة بكلمة أدرك ما سيليها من فقرات وأفكار واستطرادات وتعليقات، كما أصبح معروفًا عني بأني تلميذة الشيخ إلى الدرجة التي كان إذا ما أراد أحد شباب الصحوة المشتركين معنا في النشاط والحركة أن يتقرب مني بهدف التمهيد ليكلمني في موضوع الزواج يهديني شريط فيديو لمحاضرة نادرة للإمام، وعندما كنت طالبة في الدراسات العليا في الرياضيات، نصحني أن أتوجه لدراسة أحد فروع العلوم الإنسانية، على أساس أن التكوين العلمي (وقصده الرياضيات)، يساعد على بلورة فكر إسلامي ناضج مستنير، فعملت بنصيحة شيخي وتوجيهه واخترت العلوم السياسية إلى جانب الرياضيات

ومررت بالبكالوريوس والماجستير والدكتوراة، ومن ثم فإن التلمذة لم تكن علما فقط ولكنها كانت نصيحة وتوجيها أيضا، وما زلت أذكر كيف كنا وفي نشاطنا الجامعي نختار كتاب الأسبوع للمدارسة من كتب الإمام، وكان لرسالة جيل النصر المنشود تأثير خاص علينا، حيث كنا نسقط مضمونه على أنفسنا لنعرف مدى انطباق الشروط التي وضعها الإمام لجيل النصر المنشود علينا، ومن ثم نبدأ في تفنيد سلوكنا ومراجعة طموحاتنا حتى تكون في مستوى تلك الشروط لعلنا نكون ذلك الجيل، كما كنا نحفظ قصائده التي حولناها إلى أناشيد ورددناها في مختلف المناسبات، وكان أعزها علينا، مسلمون مسلمون مسلمون حيث كان الحق والعدل نكون، نرتضي الموت ونأبى أن نهون، في سبيل الله ما أحلى المنون، وكنا نذرف الدموع شبابا وفتيات ونحن نردد:

يا أخي في الهند أو في المغرب
أنا منك أنت مني أنت بي
لا تسل عن عنصري عن نسبي
إنه الإسلام أمي وأبي

ثم شاءت إرادة الله، وبعد أربعة عشر سنة من التلمذة أن يتم هذا الزواج بين بنت الصحوة ومرشدها، لحكمة هو يعلمها، فلم يقطع علي ذلك طريق التلمذة، بل أتاح لي القرب من الإمام فرصا ثمينة لمزيد من التعمق والتبصر في مسائل تمتد امتداد اهتمامات الإمام في المجالات المختلفة.

ومن منطلق هذه التلمذة أنا أشارك في هذا المؤتمر، وأقدم ورقتي عن شيخي ومعلمي: والتي موضوعها:

الموضوع: منهجية الإمام القرضاوي في مقاربة المسألة السياسية

عملا بمقولة "إن المنهج ليس إلا مفاهيم يجب تحديدها كما يجب ضبطها"، نبدأ هذا البحث بتحديد مفهوم السياسة عند الإمام القرضاوي، فبعيدا عن كل الثنائيات المتضاربة، من دين ودولة ومدني وديني وأصالة ومعاصرة ودين وسياسة وحاكمية وعلمانية، وعالمية وعولمة، وغيرها من أشكال الفصام المتقابلة، التي شكلت هواجس حبست الفكر الإسلامي في دائرة مغلقة وحولته إلى مجرد درع للمقاومة، تحرر الإمام من هذه المزالق المنهجية، عندما اقترب من المسألة السياسية معبرا عنها بلغة العمران البشري، عائدا بالإشكالية إلى دورتها التاريخية والحضارية، منطلقا من إطارها الزمني ونظامها المعرفي بما يتضمنه من مسلمات كامنة في الوحي والعقيدة، فمن عمق الرؤية الإسلامية للكون يحدد القرضاوي مفهوم السياسة بتدبير أمور الأمة بما يحفظ عليها هويتها القائمة على التوحيد، ويمكن لرسالتها العالمية بما يحقق مقاصد الاستخلاف والعمارة في الأرض، ويؤسس لدولتها القائمة على العدل والحق المؤيد بالقوة، وهي دولة مدنية مرجعها الإسلام، من منطلق أن كل مسلم رجل لدينه معني بالاهتمام بشؤون المسلمين من جهة وعلى أن قيام الدولة الإسلامية على عقيدة الحاكمية لا يعني أنها دولة دينية ومن هنا يكون الإمام قد تجاوز ثنائية الحاكمية والعلمانية، وإلى هذا الحد يمكن رصد منطقة للتداخل بين هذا التعريف وتعريف السياسة في إطار الفلسفة الوضعية، وذلك بعيدا عن الرعب والترقب والرصد الذي أفرزته آليات الصراع في تاريخنا الحديث وواقعنا المعاصر، والتي جعلت حالة التأهب التي يعيشها العقل المسلم حائلا دون انطلاق الخيال والإبداع، إنه تداخل جزئي يعود إلى الخبرة الإنسانية المشتركة، فنجد بين فن الممكن والتدبير معنى مشتركا، كما أن وصف الممكن يتقاطع مع الأخذ بفقه الواقع وفقه الموازنات والأولويات وفقه السنن مع تسجيل الفوارق التي تفرضها دوائر الثوابت والمتغيرات في فلسفة التدبير من جهة والمثالية الإسلامية التي تسعى دائما إلى تحكيم الإسلام في الواقع بدل من جر الإسلام إليه، في حين أن وصف الممكن في التعريف الغربي للسياسة يعني التكيف

وتحكيم الواقع تبعا لمقولة العمل وفقا لما هو كائن، أما التداخل الجزئي الثاني فهو يتعلق بالقوة والسلطان، فالدولة المدنية عند الإمام تقوم على العدل والحق المؤيد بالقوة، في حين نجد أيضا مفهوم السياسة في الغرب ومنذ مدينة أرسطو إلى غاية وستفاليا وبروز الدولة القومية فالإمبراطورية الأمريكية القائمة ومن أرسطو إلى لاسويل وفيبر ودانيال وقبل ذلك هوبس ولوك وغيرهم، تمركز حول القوة والسلطة والحكم والنفوذ، وهنا أيضا يمكن القول بأن القوة كعنصر مشترك يستبطن عند الغرب مفهوم الصراع، بينما في التعريف الإسلامي للسياسة نجد التلازم بين العدل والحق والقوة أمرا حتميا يعود دائما إلى التوحيد كمنطلق وتحقيق الرسالة كهدف في التعريف الإسلامي للسياسة، أما نقطة التقاطع الثالثة بين تعريف الإمام والتعريف الوضعي، فإنها تكمن في المصلحة والمنفعة، ففي حين المصلحة تتحدد وفقا للشريعة التي توازن بين حق الفرد وحق الجماعة، نجد أن المنفعة في الواقع الغربي كما يحددها بنتام تنتهي إلى الفردانية والبراغماتية، كلما وجدت ثغرة قانونية، ومن ثم يمكن القول، إن هذا التعريف وبسبب التحرر المنهجي الذي التزم به الإمام بتجاوزه للثنائيات المتقابلة بعد تفكيكها، قد تداخل فيه الديني والمدني والإسلامي والإنساني، كما أن هذا التداخل جاء انسيابيا طبيعيا بسبب تعطيل ميكانيزمات الدفاع؛ لأن العالم عندما يصل به علمه إلى اليقين تبطل قاعدة الفيزياء المعروفة، فعلى مستوى العلوم الإنسانية لا يمكن أن تنطبق قوانين المادة على قوانين العلوم الشرعية حيث يجب أن ننسى تلك القاعدة المشؤومة لكل فعل رد فعل، والتي جعلتنا وعلى مدار قرن من الزمن نراوح مكاننا ونضيع أوقاتنا في المقابلات والمفاضلات والمقارنات، وكأنني بحديث الرسول عليه الصلاة والسلام لو دخلوا جحر ضب لدخلمتوه ينطبق علينا ليس فقط بالتقليد والاتباع ولكن بالرصد والرد فلو عدنا إلى إنتاجنا الفكري بالتفكيك والنقد لوجدناه مجموعة من الردود والردود، ولمزيد من التوضيح، لنتدارس معا بعض العوامل المنهجية التي حررت عقل الإمام من تحكم آليات الصراع وعطلت عنده ميكانيزمات الدفاع عند اقترابه من القضايا السياسية:

العامل المنهجي الأول:

منهج الأصولية:

والمقصود أصولية المنهج في مقاربة المسألة السياسية، بمعنى الربط في مقاربة القضايا السياسية بين الوحي والعقل، وأصول الفقه وتحكيم مقاصد الشرع، أي فقه النصوص في ضوء المقاصد، مثل فتواه في موضوع هل يكون الولاء للوطن أو للدين للأقليات الإسلامية في الغرب إذا ما تعارض الولاء للوطن مع الولاء للدين، والتي انتهى فيها إلى أن الولاء يكون للدين، عليهم في هذه الحالة الانطلاق في أرض الله الواسعة، حفظا للدين كمقصد من مقاصد الشريعة، ومن ناحية أخرى وباعتبار الوطن في حالات أخرى جزءا من أرض الإسلام التي يعتبر الدفاع عنها فريضة دينية بل تصبح فريضة عينية، إذا هوجمت من طرف أجنبي، بل قد تنتقل الفرضية حتى تشمل المسلمين كافة، وهنا فإن الولاء للدين في هذه الحالة يقتضي الولاء للوطن دائما بهدف حفظ الدين كمقصد أول من مقاصد الشريعة، بينما نجده في موضوع الديمقراطية وتعدد الأحزاب وحق المرأة في الترشح والانتخاب ولأن الموضوع يتعلق بالآليات أكثر منه بالعقيدة والثوابت، فقد أفاد الإمام من الخبرة الغربية في هذا المجال كما فعل ابن خلدون والفارابي في زمانهم، مقيدا في ذلك بالنصوص والمقاصد وقواعدها العامة، على أساس أن المسلم يستطيع أن يشرع لنفسه في مناطق واسعة من حياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بما يرعى جلب المصالح ودرء المفاسد ورعاية حاجات الناس أفرادا وجماعات طالما تلك القضايا تقع في منطقة العفو والمسكوت عنه، ويكون في ذلك للفقه السياسي وما يتضمنه من فقه موازنات ومصالح وأولويات دور كبير في عملية الاجتهاد، فالديمقراطية كآلية لا تتنافى مع الحاكمية ولا مانع من تعدد الأحزاب، فتعدد الأحزاب في السياسة كتعدد المذاهب في الفقه، والمنع الشرعي يحتاج إلى نص ولا نص.

1 - الرجوع إلى الشريعة رجوع افتقار لا رجوع استظهار:

في سعيه لتجاوز تلك الثنائيات في مقاربته للقضايا السياسية، استخدم الإمام أدوات منهجية أحدثت قطيعة واضحة مع أدوات الإسقاط والمطابقة التي اعتمدتها

حركة الإصلاح الأولى في مقاربتها للمسألة السياسية والاجتماعية، حيث إن أول عامل منهجي أدخل الفكر الإسلامي دائرة المقاومة المغلقة، يكمن ابتداء في السعي إلى البرهان على أن الإسلام يملك إمكانيات ذاتية، ويتضمن معاني تتقاطع في الكثير من أبعادها مع ما جاءت به فلسفة الأنوار، ولقد أدى توظيف هذه المنهجية المباشرة في محاولة حل الإشكاليات المركبة التي أفرزها الواقع السياسي والاجتماعي في العالم الإسلامي، إلى استدعاء الإسلام لإسقاط ومطابقة مضمون النصوص على مخرجات فلسفة الحقوق في الغرب، وذلك بهدف دفع الغرب عن اتهام الإسلام، من خلال إثبات أن الحضارة الغربية قائمة في جوهرها على قيم ومبادئ الإسلام، من ناحية وللاستفادة من نتيجة الإسقاط لكسب شرعية دفع حركة الإصلاح إلى الأمام، في مرحلة كانت الكثير من النخب، لا تزال تعاني من آثار الصدمة مع الغرب، ومن ثم حاول الكثير من رواد الإحياء والإصلاح، عقد مؤالفات بين كل الشورى والديمقراطية والإجماع والرأي العام، والاشتراكية والعدالة الاجتماعية، إنها الطريقة التي يمكن التعبير منهجيا بعملية الرجوع الاستظهاري للشريعة، وهو نوع من أخذ الأدلة الجزئية مأخذ الاستظهار لتبرير فكرة أو رؤية أو موقف، وكأنه استدعاء للإسلام طبقا لحاجات العصر أو سحب الإسلام لقيم العصر، وهو أمر حذر منه الإمام الشاطبي في الموافقات، لقد عبر المفكر الجزائري مالك بن نبي في سياق انتقاده لبعض الجوانب المنهجية في فكر الإصلاح بقوله: لم يكن المتجادلون يبحثون عن حقائق إنما عن براهين، لكن وبحلول السبعينيات أحدث الإمام بسلسلة حتمية الحل الإسلامي القطيعة مع منهج الرجوع الاستظهاري للشريعة عندما قارب المسألة السياسية من منطلق الرجوع للشريعة رجوع افتقار، وهي خطوة منهجية جاءت كنتيجة حتمية للمنهجية الأصولية، ولكن قبل ذلك الرجوع قام بتجاوز تلك الثنائيات من خلال تفكيكها، مثل قضايا الوحدة والقومية والحرية وقضية فلسطين، ومن أهم الاقترابات التي كان للإمام السبق فيها عملية النقد الذاتي للحركة الإسلامية بذكره المعوقات الداخلية للحركة، حيث كان الإسلاميون في ذلك الوقت يركزون على المعوقات الخارجية من استعمار والقوى الصليبية واليهودية المعادية ولا يلتفتون كثيرا للآفات الداخلية،

كما قارب مبكرا ظاهرة الانقلابات العسكرية، منتقدا إياها ومعتبرا أنها لا تصلح طريقة للتغيير والإصلاح.

العامل المنهجي الثاني:

2 - التحرر من آليات الصراع، ونظرية الاستجابة الشرطية، أو المنديل الأحمر والثور كما يسميها مالك بن نبي:

تلعب آليات الصراع عادة دورا كبيرا في تقييد مجال النظر وتحول دون انطلاق الخيال والاستغراق في التأمل في الإشكاليات السياسية الحقيقية التي تواجه المسلم في الواقع الكلي، الأمر الذي تحرر منه الإمام القرضاوي على الرغم من أن الأحداث التي مر بها، والتي كانت لتخلف عنده الاستعداد للوقوع ضحية لتلك الآليات من حيث لا يدري، فحياة السجن والمطاردة وملاحقة الحركة وحلها والصراع الداخلي والخارجي بين الحركة ومعارضيها وأعدائها، لكنه بقي ثابتا متطلعا لتحقيق الأبعاد والمعاني العليا لتلك الرسالة التي سخر لها نفسه، والتي اعتبر نفسه معنيا بتبليغها للناس كافة، وهي مسألة عقائدية ومعنوية ذات أهمية في تحرير عقل العالم المسلم في اقترابه من القضايا السياسية خصوصا، حيث تفعل آليات الصراع بقوة لاسيما من الخارج، فتدفع المعني إلى الاستغراق في استخدام أساليب المقابلة والمفاضلة، التي تنشط من خلالها ميكانيزمات الدفاع، والمقارنة في التعامل مع القضايا السياسية، مما يتطلب اعتماد الأساليب السجالية التي غالبا ما طغت على رجالات الحركة الإسلامية وشكلت خطرا عليها؛ لأن الاستمرار فيها بعد تحقيق نقطة الإشباع قد يؤدي إلى النكوص والتراجع، فموقفه من بعض أفكار سيد قطب في المذكرات، وانتقاداته لظاهرة الغلو والتطرف ومقاربته لظاهرة العنف، واعتباره أن الحرية سابقة لتطبيق الشريعة كلها يمكن اعتبارها من أشكال ونتاج التحرر من آليات الصراع.

العامل المنهجي الثالث:

3 - الواقعية والفاعلية:

من منطلق الجمع بين والواجب والواقع كما يقول ابن القيم أو التعامل مع ما هو كائن والتطلع إلى ما يجب أن يكون، أفرد الإمام اهتماما خاصا لفقه الواقع

في اقترابه من المسألة السياسية، فحتى لا يستغرق مفهوم العلم النافع الذي يتعلق بالعمل الصالح بحيث لا يحدث انفصام بين الإسلام وحركية الواقع، لم يترك الإمام فرصة يمكن من خلالها تدبير أمور الأمة في جزئية من جزئيات العمل السياسي إلا واستغلها، فضلا عن اجتهاداته الخاصة التي بدأت بأفكار وتحولت إلى مشاريع كبرى أصبحت ملكًا للأمة، فمن منطلق الدخول في حركية الواقع تدبيرا لأمور الأمة التقى الإمام مجموعة من رؤساء وأمراء وملوك الدول العربية والإسلامية، وهي لقاءات لم تكن للمجاملة، حيث تضمنت جميعها أفكارا خاصة بمشاريع إسلامية كبرى، أو سعيا للمصالحة بين أطراف بينها خلاف من أجل تحقيق الوحدة، أو تحفيزا من أجل خدمة قضايا الأمة، وقد انتهت في أغلبها بالتجاوب والفاعلية، لقد كان مالك بن نبي يخشى من تعلق الناس بعالم الأشياء والأشخاص بعيدا عن عالم الأفكار فماذا عندما يمثل الشخص عالما من الأفكار، لقد كان لفكرة ائتلاف الخير تداعيات ذات وزن في الحسابات السياسية، فالنتائج العملية للنشاط المدني والاجتماعي الذي تحقق بسبب ما وفرته مؤسسة ائتلاف الخير من إمكانيات قد أثبتت نتائجها العملية يوم اكتسحت حماس مقاعد المجلس التشريعي في كل من القطاع والضفة، وكذلك مؤسسة إسلام أون لاين التي أصبحت من أهم مصادر المعلومات في العالم العربي والإسلامي، ومؤسسة الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين التي أعادت الدور السياسي الغائب للعالم المسلم في تدبير شؤون الأمة، وجعلت للعلماء حضورا واعيا في قضايا الأمة، والهيئة الخيرية العالمية ومؤسسة القدس القائمتين على فكرة الجهاد المدني وكلها مؤسسات لها أهميتها في واقع التفاعلات الدولية القائمة على مستوى المجتمع الدولي، فالمنظمات غير الحكومية في العالم باتت تعرف بالقوة الثالثة، كما أن عالم مستقبليات مثل ألفين توفلر ينتهي في بنائه لمجموعة من السيناريوهات الخاص بمستقبل النظام الدولي، إلى أن التراتب على مستوى النظام الدولي لن يكون وفقا للقطبية، وإنما وفقا لعدد مؤسسات المجتمع المدني في هذه الدولة أو تلك ودرجة نشاطها والفاعلية العلاقات شبكاتها العابرة للحدود والقارات.

وعلى المستوى الدولي والعالمي كان للإمام أيضا دوره السياسي، مثل تدخلاته في قضية الرهائن ولقاءاته بكل من وزير الخارجية الفرنسي ووزير الخارجية الإيطالية.

كما شمل الاحتكاك المباشر بالواقع ومحاولة التأثير فيه تلك المظاهرات والاعتصامات والتجمعات التي دعا إليها الشيخ ونظمها وشارك فيها.

4 - <u>أسبقية الأمة على الدولة وعلى الجماعة بالمفهوم التنظيمي</u>:

إن تعريف الإمام للسياسة ابتداء، يستلزم مباشرة تلك الأولوية التي يعطيها للأمة على الدولة وحتى على الجماعة بالمفهوم التنظيمي، فعنده دار الأرقم كانت قبل دولة المدينة، وأن بإمكان استمرار المسلم في أداء واجباته في دائرة الأمة إذا تعطلت وظائف الدولة ففي حالة الاستعمار أو عند استبداد الدولة أو علمانيتها أو عجزها عن القيام بالوظائف المنوطة بها، يظل كيان الأمة قائما مستمرا طالما استمر المسلم في أداء واجباته تجاه الأمة وفي دائرتها، بالإضافة إلى ما أكده الإمام في كتابه الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم، والذي كان سابقا على كتابه فقه الدولة في الإسلام عندما عدد مبررات وعوامل الاستمرارية الأبدية لبقاء هذه الأمة مثل الدين والتاريخ والجغرافيا والواقع، وعلى عكس الدولة التي تغيب وتظهر وتقوى وتضعف وتستبد وتعدل كما تتغير طبيعة أنظمتها وحكامها، في حين تبقى الأمة موجودة وواجب المسلم تجاه شؤونها وفي دائرتها قائم ما ظلت قائمة، أما الأسبقية على الجماعة بالمفهوم التنظيمي فقد أكدها الإمام واقعيا عندما اعتذر عن رفضه منصب المرشد العام للإخوان مرتين، من منطلق أسبقية الأمة على الجماعة بالمعنى التنظيمي وعمليا، فضلا على ترسيخه لهذا المبدأ على مستوى كل المؤسسات التي أنشأها أو ترأسها أو شارك في تأسيسها والتي امتدت في عضويتها ونظامها وبرامجها بامتداد الأمة.

الخاتمة:

وفي الخاتمة نقول: إن الأفكار الكبيرة دائما تنبع من القلب، وإن رحلة الاجتهاد التي قام بها العلامة القرضاوي، على مدار هذه المحطات الطويلة وهذا الاقتراب الفريد من المسألة السياسية منهجا وفكرا وعملاً، لم يكن ليتم لولا أن سرا كامنًا عند الإمام حباه الله به دون الكثير من غيره من الناس، فلقد قال الله الشيخ الصوفي الجزائري: الشيخ بلقايد في تلمسان عام... إن الله قد أعطاك ما لم يعطه إلا للنادرين من الناس، فسأله الشيخ ما هو؟ قال الله: اللوعة، إنه يعني بها تلك الحرارة والحرقة التي تلمس في محاضراته وخطبه وأحاديثه وكتاباته وهي جزء من كيانه وطبيعته، وقبل عقود قال الشيخ الغزالي رحمه الله: لا يخدم الإسلام إلا شاعر، فإن لم تكن شاعرا بالكلمة فكن شاعرا بالإحساس، كما اعتبر مالك بن نبي رحمه الله، أن أقصى حد من التوتر الذي يعيشه الإنسان في انشغاله بالمعاني الكبرى للقضايا لا بد أن يؤدي إلى تحقيق أقصى حد من الإنتاج، وهو إنتاج أعاد من خلال الشيخ للعلماء دورهم السياسي في قيادة الأمة وتوجيهها وإرشادها، وشكرا.